تاريخ التاريخ

للدكتور محمد مصطفى صفوت

مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

كان التاريخ أول أمره قصصاً يختار القصاص من أنبائه ما يهزهم ويستثير إعجاب الجمهور، وكان يدور حول حوادث الآلهة والأبطال فكان عند اليونان مصوغاً شعراً قصصيًّا يرتل وينشد، شعراً يتغنى بمجد اليونان، ويشيد بما كان لأبطالهم من بلاء في الحروب؛ وأول أثر تاريخي وصلنا في ذلك القالب شعر « هوميروس »

ومثل ذلك كان موجوداً عند الشعوب التي لم تبلغ بعد حظًّا من الحضارة، تاريخها قصص يتناقله الرواة ومركزه الأبطال. ظهر ذلك عند العرب في الجاهلية، وعند الترك قبل دخولهم المسيحية، وعند الفرس القدماء وغيرهم. ويغلب في ذلك النوع من التاريخ الأسطورة أو الأخبار، لأن العنصر الشخصي ظاهر فيه من ناحية الشاعر والناقل والقاص، فكل منهم ينتقي ما راقه — في الغالب — دون نقد أو تفكير، ثم يضيف إليه ما يضيف، أو ينقص منه ما شاء أن ينقص. فأمثال هوميروس ينسبون إلى أبطالهم وآلهتهم ما شاءوا من أعمال لا يستطيع العقل تصديقها، وسبح بهم الوهم والخيال ... ولم يخف ذلك على بعض عقلاء اليونان من أمثال « أيزوكراتيس Isokrates » الذي يقول: « فلم ينسبوا إليهم — أي إلى الآلهة والأبطال — الوقوع في أسر من يموت ويفنى، ولكنهم يمثلونهم آكلين أطفالهم، معذبين آباءهم، ومقرنين أمهاتهم في الأصفاد »[1].

وأول من اهتم بالتاريخ وبذل جهداً للوصول إلى الحقيقة هو « هيرودتس »: فيسافر لجمع الأخبار بنفسه، ويهتم بالناحية الجغرافية في دراسته، ويعرض الآراء المختلفة أمام جمهرة قارئيه أو سامعيه ليختاروا منها ما شاءوا. ولكن هيرودتس كان قبل كل شيء قاصا أخباريا، يجمع ما له قيمة في نظره وما يلذ جمهوره فهو في الواقع أب المؤرخين القاصين الأخباريين

وتمت المرحلة الثانية في البحث التاريخي على يد ثيوكيديدز Thucydides مؤرخ حرب البلبونيز — انتقد ذلك الرجل سرعة الناس إلى التصديق، وعدم تمييزهم ما بين الصحيح وغير الصحيح ولذا فهو يهتم بتنظيم حقائق هذه الحرب حتى يبين الحوادث؛ وهو يعنى بنقد حقائقه ويقول: «إنني ما وصفت شيئاً رأيته، أو سمعته، ولم أحققه بكل تدقيق وعناية». ويختلف في مرماه عن هيرودوتس فهو يرمي إلى غرض تعليمي وإلى إعطاء دروس في السياسة حقيقية

ولم تهتم حكومة في القديم بتدوين أخبارها مثلما اهتمت الحكومة المصرية. فعنى الملوك والأمراء والعظماء بتسجيل أعمالهم، وتدوين حوادثهم، ووصف نواحي حياتهم المختلفة: الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحاولوا إعطاء الخلف صورة واضحة عن حياة السلف. وكانت فلسفتهم التاريخية الاستعداد في هذه الحياة الدنيا للحياة الآخرة، فالحياة الدنيا ليست دار قرار ولا دار عدالة. وكما اهتم المصريون القدماء بتدوين أخبارهم حاولوا تشويه معالم تاريخهم. فكانت هناك محاولات فردية قام بها بعض الملوك لطمس معالم تاريخ من سبقوه. ولكن لحسن الحظ لم تنجح مثل هذه المحاولات نجاحاً تاماً

وقد ظل مظهر القصص والسياسة يغلبان على دراسة التاريخ مدة طويلة في العصر القديم. ومن بعد عهد المؤرخين الرومان من أمثال سالوست Sallust وليفي Levy وتاكيتوس Tacitus أصبح التاريخ فرعاً من فروع الأدب وانحطت دراسته. ولقد أغفل المؤرخون القدماء ما نسميه الآن بالتاريخ العام فما كانوا يعترفون بغير الإغريق والرومان؛ وما عداهم من الأمم فكانوا «متبربرين»

ثم جاءت المسيحية ونمت، فلم يعد المؤرخون يهتمون بأنباء الوثنية أو بالماضي الوثني، وإنما اهتموا بالمسيحية ذاتها. وكان للمسيحية فلسفتها التاريخية الخاصة بها، فحوادث هذا العالم — كما ترى — سائرة وفق نظام إلهي لتمهيد الطريق لظهور المسيح؛ وعلى فكرة ظهور المسيح يتوقف تاريخ ما قبل المسيح وما بعده، فبعده تقاسي الإنسانية أنواع العذاب إلى يوم القيامة. وقد وجدت هذه الفلسفة أحسن تعبير لها في كتاب القديس أغسطين « مدينة الله ». وقريب من هذا فلسفة المسلمين التاريخية في العصور الوسطى إذ يرون أن العالم سائر وفق نظام وضعه الله له إلى يوم القيامة، في ذلك اليوم يجزي الله الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى

أما نظرية التطور والتقدم[1] فلم تظهر واضحة في العصور

(١) Freeman and Rendall : Schools of Hellas ص ٢٣٠، ٢٣١

(١) لتاريخ نظرية التقدم في التاريخ انظر : Bury : The Idea of Progress.

الوسطى ، وإن كانت مبادؤها قد وضعت فى الماضى الإغريقى . لأن الفكرة المنتشرة فى أوربا فى هذه العصور كانت فكرة الخطيئة الأولى ، خطيئة آدم وحواء وليس هنالك مجال للتقدم والتحسن . ويغلب على التاريخ فى ذلك الوقت نوع الحوليات ، يضعه فى الغالب رجال الدين الذين يهتمون بانتقاء المعجز والغريب من الأخبار ، وربما كان خير مثل لهؤلاء جريجورى التورى . أما فى الشرق عند المسلمين فكانت الحالة قريبة الشبه فكان الاهتمام « بالنقل » هو الظاهرة البارزة ، وكانت النزعة الدينية غالبة ، أما روح النقد الحقيقى كما نعرفه فى الوقت الحاضر فما كانت موجودة إلا عند القليل

سادت فكرة تفوق القديم بصفة عامة فى العصور الوسطى ، بل كانت مسيطرة على عقول عدد كبير من رجال النهضة . فكانوا يعتقدون فى تفوق الإغريق والرومان فهم أرباب العلم والأدب والفن فما وصلوا إليه هو درجة الكمال لا يمكن الزيادة عليه . ولكنه بالرغم من ذلك بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة فى عصر النهضة نفسه . فكميافلى لا يرى الإنسانية سائرة فى طريق التقهقر — بدأت تظهر فكرة التقدم واضحة عندما أخذ الإنسان يشعر بأنه حر الإرادة يستطيع تحديد مستقبله إلى حد كبير . فبودن Bodin وهو من أعلام المؤرخين يرى أن التاريخ يعتمد على مشيئة الإنسان ، ففى كل وقت تظهر قوانين وعادات ونظم جديدة كلها من صنع الإنسان ، ويلاحظ قانوناً عاماً هو أنه ليس هنالك انحطاط مستمر بل رقى تدريجى .

نشبت إذن معركة بين القدامى والمحدثين ، بين الذين يقولون بتفوق الماضى والذين يقولون بتفوق الحاضر ، وظهر الإيمان بنظرية التقدم على يد فونتنل Fontenelle [(١)] فى القرن السابع عشر . يقول فونتنل : « ليس هنالك فرق بيننا وبين أجدادنا إلا أنهم سبقونا فى ميدان العلم فكانوا المخترعين الأول ، ولو كنا محلهم لقمنا بمثل ما قاموا به ، ولو كانوا محلنا لعملوا مثل ما نعمل ، فنحن نجلهم أكثر مما ينبغي كما سيجلنا أبناؤنا فيما بعد » . وجاءت ثورة ديكارت الفكرية التى أعلنت استقلال الإنسان فى أعماله مؤيدة فكرة التقدم . ويضيف ليبنتز فيقول : « وعلى مر الأيام سيصل الإنسان إلى درجة من الكمال لا نتصورها اليوم »

ازدادت العناية بالتاريخ فى العصور الحديثة لحركة النهضة وللكشف الجغرافى . درس الإنسانيون التاريخ ، لأنه يفسر لهم العالم الإغريقى والرومانى القديم ، وكان فى نظرهم خادماً للأدب ، ولما قامت حركة الإصلاح الدينى زادت أهمية التاريخ إذ وجد فيه المصلحون أسلحة قوية ضد ادعاءات البابا ؛ واهتم به المفكرون الاجتماعيون لأنه يفسر فى نظرهم نظرية التقدم والنمو . فلا عجب إذا عنى المؤرخون بجمع الوثائق وتنظيمها . والاهتمام بالعوامل الجغرافية فى دراسة التاريخ

ولقد جاء منتسكيو وفلتير وقالوا بقيمة العوامل الطبيعية فى تسيير التاريخ « فليست الصدف هى التى تحكم العالم فى نظر منتسكيو [(١)] ، فالظواهر السياسية كالظواهر الطبيعية لها قوانينها العامة » ويرى أن الأخلاق تعمل على رفع الشعوب وأن العوامل الجغرافية والمناخية تؤثر فى مجرى الحياة الإنسانية . أما فلتير فقد اهتم بتاريخ الشعوب ففى كتابه « عصر لوى الرابع عشر » أعلن أن غايته ليست وصفاً لعمل فرد وإنما لعقل الأفراد وللروح التى تسيطر عليهم . ولقد نحا نحوها الطبيعيون أو الفيزيوقراط وقالوا إن الإنسانية ولو أنها ترتكب كثيراً من الأخطاء إلا أنها سائرة فى طريق التقدم ، وأن الناس يعملون بوحى قوانين إلهية لا يستطيعون النكول عنها ، هذه القوانين ترمى إلى صالح الفرد وإلى صالح الجماعة

وكان للثورة الفرنسية فلسفتها التاريخية ، فكوندرسيه يرى أن التاريخ يوضح نظرية التقدم ويساعد على تعيين اتجاهها فى المستقبل ، وحوادث التاريخ فى اعتقاده تدل على أن الطبيعة لم تضع حداً لنمو الإنسان ، وأن رقيه نحو الكمال رهين ببقاء العالم ، وأن تقدم الإنسان بطئ تارة وسريع تارة أخرى ، ويستطيع الإنسان التكهن بالحوادث إذا عرف القوانين العامة للظواهر الاجتماعية ، ويمكن معرفة هذه الظواهر من دراسة التاريخ

ومن القرن الثامن عشر لم يعد الاهتمام التاريخى مقصوراً على دراسة الأشخاص والشعوب ، بل أخذ يمتد إلى دراسة الحضارة أو ما يسميه الألمان Kulturgeschichte . وقد زاد الاهتمام بدراسة التاريخ فى القرن التاسع عشر على يد نيبور Niebuhr رانكه Ranke المؤسس للمدرسة التاريخية الحديثة ، فزادت العناية بالرجوع إلى المصادر الأصلية للتاريخ وإلى دراسة نواحيه المختلفة وامتد نفوذ هذه المدرسة إلى بقية أجزاء أوربا وأمريكا .

(البقية فى العدد القادم) محمد مصطفى صفوت

(١) هناك فصل جيد على فونتنل فى Bury : The Idea of Progress ص ٩٨ — ١٢٥

(١) Considerations on the Greatness and Decadence of the romans (١٧٣٤)